دراسات تاريخية المجلد11 العدد 01 السنة 1445هـ/2023م ص ص 505/ 515

مجلة دراسات تاريخية

ISSN: 9741-2352 EISSN :6723-2600



المقاومة الثقافية في غرب إفريقيا
الشيخ الحاج مالك سي(1853-1922م) أنموذجاً
Cultural Resistance in West Africa Shaykh El Hajj Malik Sy
(1853-1922 CE) as a Model

جعفري محمد
Djaafri Mohammed
جامعة أحمد درايعية أدرار (الجزائر)
مخبر المخطوطات الجزائرية في إفريقيا
dja.mohammed@univ-adrar.edu.dz

د. عبو الطاهر
Abbou Tahar
جامعة أحمد درايعية أدرار (الجزائر)
مخبر المخطوطات الجزائرية في إفريقيا
tahar.abbou@univ-adrar.edu.dz

الارسال: 23/07/06 القبول :23/12/29 النشر:24/101/05 المرسل: جعفري محمد

الملخص:

نحاول من خلال هذا المقال تتبع سيرة إحدى أهم الشخصيات المؤثرة في غرب إفريقيا والتي لم تلق العناية الكافية من خلال الدراسات الاكاديمية، فبعد فشل المقاومات المسلحة في مواجهة الاستعمار لجأت شعوب غرب إفريقيا إلى المقاومة الثقافية التي قادها العلماء والمفكرون بهدف افشال السياسة الاستعمارية الهادفة إلى محو التراث الديني والثقافي لهذه الشعوب. لعل من أبرز الشخصيات التي أثارت الكثير من التساؤلات حول موقفها من الاستعمار هو الشيخ الحاج مالك سي، الذي يُعتبر في نظر بعض المفكرين من أكبر الموالين للإدارة الاستعمارية، بينما يراه البعض الاخر رمزا للمقاومة ومجددا للدين الإسلامي في منطقة السنغال وما جاورها.

الكلمات الدالة: الحاج مالك سي – التجانية – حركة المقاومة – الدعاة –التعليم.

Abstract

In this article, we attempt to trace the biography of one of the most influential figures in West Africa, who has not received sufficient attention in academic studies. After the failure of armed resistance against colonization, the peoples of West Africa resorted to cultural resistance led by scholars and intellectuals, aiming to thwart the colonial policy that sought to erase the religious and cultural heritage of these peoples. One of the most prominent figures that raised many questions about his stance towards colonization is Shaykh El Hajj Malik Sy, who is considered by some thinkers as one of the staunchest supporters of colonial administration, while others see him as a symbol of resistance and of the renewal of Islamic religion in Senegal region and its surroundings.

Keywords. El Hajj Malik Sy, Tijaniyya, Movement of Resistance, Preachers, Education.

مقدمة:

عقب مؤتمر برلين الثاني 1884-1885م[1] شهدت منطقة غرب افريقيا تسابقاً محموماً وتوسعات استعمارية لم يسبق لها مثيل، ولم تتحد مواقف العلماء ولا الشعوب من هذا الاحتلال الأوروبي نظراً لتعدد طرقه وأساليبه، واستطاع المستعمر بفعل قوته وتطور وسائله الحربية القضاء على المقاومة المسلحة التي وقفت في وجهه، وقد كانت سياسة فرنسا في مستعمراتها تتبنى سياسة المشاركة(**Association**) أي خلق نخبة تكون واسطة بين فرنسا الحضارية والشعوب الافريقية المتخلفة، وهذا ما جعل نخبة من العلماء والمثقفين يقفون في وجه هذه السياسة الاستعمارية الفرنسية التي أرادت القضاء على هوية ومقومات شعوب مستعمراتها. ومن أكثر الشخصيات البارزة التي كان لها دور كبير في مواجهة فرنسا بطريقة خاصة ومتميزة الشيخ مالك سي.

تتمثل إشكالية هذا البحث في معرفة مدى إسهام الحاج مالك سي في مقاومة الاستعمار الفرنسي، والتساؤل حول مميزات أسلوب هذا الشيخ في نشر الطريقة التجانية والحفاظ على الهوية الإسلامية؟ وقد اعتمدنا المنهج التاريخي لتتبع حياة الشيخ، كما اعتمدنا المنهج المقارن لتقريب وجهات النظر حول هذه الشخصية. وتكمن أهمية الموضوع في كونه يتناول بالبحث والدراسة شخصية بارزة كان لها دور محوري في المحافظة على القيم الإسلامية وأسلوبه الخاص في التعامل مع الاحتلال الأجنبي.

1-التعريف بالحاج مالك سي:

شاءت الاقدار أن يصادف عام مولد هذه الشخصية سنة أول إغارة فرنسية على مقاطعة والو السنغالية بقيادة لويس فيدربي **Louis Faidherbe**[2]. ففي سنة 1274هـ الموافق 1855م[3] ولد مالك بن عثمان بن محمد بن علي بن يوسف، من قبائل الولوف، أما أصوله الحقيقية فترجع الى شعب التوكولور ولان أجداد الشيخ عاشوا بين قبائل الولف فقد اشتهروا بانتمائهم لهذه الشعوب.[4] ولُقِب الشيخ مالك بسي أو صي لأنه صيني المسكن. فقد ولد الشيخ مالك سي بن عثمان بقرية (دغنه) بمقاطعة (والو) بشمال السنغال، وكان والده عثمان قد أوصى قبل وفاته إن كان ابنه الذي لم يولد بعد ذكراً، أن يسمى مالكاً. نشأ الشيخ مالك يتيماً حيث كفله خاله ألفا (مايورو وِلِ). وكان الخال نعم الحاضن فقد كان من كبار العلماء في منطقته وفي نفس الوقت من مقدمي الشيخ الحاج عمر الفوتي التجاني مما سيكون الأثر الكبير في توجه الشيخ مالك العلمي والصوفي.

نالت شخصية الحاج مالك الكثير من التقديس في السنغال، فقد أورد عثمان جاي عشر مقاربات ومصادفات مشتركة بين الشيخ الحاج مالك سي والرسول ﷺ من حيث أن كل منهما ولد يتيماً ولم ير أباه، وولدا في زمن فتنة، والهجرة فرارا بالدين، وكلاهما توفي وقت الظهر ودفن يوم الأربعاء، كما أن كل منهما

قُبِر في مسجده، كما اتفقا في اسم خليفة كل منهما فالرسول ﷺ خليفته الأول أبو بكر ونفس الأمر خليفة الشيخ مالك[5]. وفي نفس الوقت لم تسلم أيضا شخصية الحاج مالك من التدنيس.

2-حياة الشيخ مالك سي العلمية:

برزت علامات النبوغ على هذا اليتيم باكرا فقد فاق أقرانه حيث أتم حفظ القرآن وتبعه بالتبحر في القراءات، وهذا ما جعله شهيته تنفتح للعلوم الأخرى فدرس الفقه على المذهب المالكي الذي كان السائد في المنطقة، ولم يقتصر الشيخ على العلوم النقلية بل تبحر أيضا في العلوم العقلية كالرياضيات والتاريخ والمنطق. وبعد أن أتم دراسته على علماء منطقته لم يبق حبيسا لها، فقد انتقل ورحل من أجل تحصيل المزيد من العلوم على أيدي علماء السنغال وموريتانيا، فتعددت أسانيده وإجازته في مختلف الفنون العلمية.[6]

ولما كانت الرحلة في طلب العلم من أرقى الجهاد فقد قطع الشيخ الأف الأميال لتحصيله، فبعد أن نهل الشيخ مبادئ العلوم الأولى على يد خاله الفا مير والي وأهمها تعلم القرآن الكريم، سافر الشيخ في العاشرة من عمره بطلب من عمه إلى سين ولوف للتعارف مع أبناء عمومته في الولوف، وبعد عام مع أبناء العمومة عاد الشيخ سنة 1864 إلى مسقط راسه غايا ليشرع في دراسة مختصر خليل على يد خاله، ثم توجه إلى الشيخ (أبو بتي) لدراسة القراءات وعلم التجويد. ولم يزل ينتقل من قرية إلى قرية للنهل من مختلف فنون العلم علي يد العديد من المشايخ حتى وصل مدينة أندر. وفي سنة 1873م عاد الشيخ إلى مسقط رأسه وبهذه المناسبة أعطاه خاله الورد التجاني وأجازه فيه.[7]

كانت منطقة السنغال قبل الاحتلال الفرنسي تعج بالعلماء في مختلف الفنون، ولهذا تعدد مشايخ الحاج مالك من خلال جولاته ورحلاته دون كلل في معظم مناطق السنغال، فقد درس العقيدة والتفسير تحت اشراف المعلم سين كين والقانون في باكل، انتهت دورته الأولى من الدراسة في سن الخامس والعشرين ودرس الأدب والقواعد في سان لويس كما درس في فوتا وديولوف والكايور.[8]

خلف الشيخ إرثا عظيما من المؤلفات في مختلف الفنون سواء الشعرية أو النثرية، ففي مجال الفقه نجد كتابه (كفاية الراغبين فيما يهدي إلى حضرة رب العالمين) وفي مجال التصوف (إفحام المنكر الجاني على طريقة شيخنا أحمد التجاني) و(الكوكب المنير)، أما مجال الشعر فقد كان الشيخ من فطاحل الشعراء حيث نظم العديد من القصائد، منها قصيدة في أداب المساجد وفاكهة الطلاب في طريقة التجاني، وقد مدح الرسول ﷺ في قصيدة طويلة وسَمَها ب (خلاصة الذهب في مدح سيد العجم والعرب) بلغت حوالي الالف بيت وقيل 871 بيتاً.[9]

ركز الشيخ في تعليمه على الالتزام بمبادئ السلف وخاصة العقيدة الاشعرية، وهي عقيدة أهل السنة، وهي الرائجة في منطقة المغرب العربي وغرب إفريقيا وقد ألف الشيخ في العقيدة الاشعرية كتابه الموسوم ب ((هداية الولدان وكفاية الراغبين)) والذي يقول في مطلعه ليبين مذهبه وعقيدته:

يقول أفقر العبيد الصيني راجياً عفو المانع الحصين

المغربي المالكي الاشعري سُمي مالك الامام الاشعري.[10]

3-حياة الشيخ الصوفية:

أخذ الشيخ مالك مبادئ التجانية على يد خاله، وبهذا فسنده في الطريقة الاحمدية التجانية (الشيخ ألفا ماير ولي عن الحاج عمر الفوتي، عن محمد الغالي، عن الشيخ أحمد التجاني). ولم يكتف الشيخ بهذا السند والإجازة التجانية بل قد أضاف لها إجازة ثانية بسند آخر.[11] فبعد أن نهل الشيخ من علوم الشريعة في موطنه ارتحل إلى موريتانيا للنهل من علوم الحقيقة، من منابع التجانية الصافية حيث الشيخ محمد علي فضل التجاني الشنقيطي، وظل يخدم هذا الشيخ برعي الأغنام والإبل بصدق ووفاء لمدة طويلة، رغم الصعوبات والمشاق التي لقيها في سفره واثناء إقامته، وبعد أخذ الإذن من شيخه الذي أجازه في الطريقة التجانية رجع الشيخ مالك نحو بلاده ليبدأ مرحلة جديدة في حياته.[12]

اهتم المسلمون في غرب افريقيا بشعيرة الحج وعظموا من يؤدي هذه الفريضة، ففي سنة 1889م غادر الشيخ مالك موطنه ليحج بيت الله الحرام، وهناك عند الكعبة دعا الله مركزا على أربع دعوات: أن يحفظ بلاده من الفرنجة وأن يرزقه أرضا للزراعة ومالا ليبني زاوية، وأن يؤلف الله بين أتباعه وأولاده ليكونوا إخوة، واستغل الشيخ هذه الرحلة لزيارة سمرقند وجزيرة كريت والقاهرة كما نزل بالجزائر لزيارة عين ماضي مكان ولادة الشيخ أحمد التجاني وأتمها بزيارة مدينة فاس لزيارة قبر هذا الشيخ ليعود في النهاية لبلده السنغال سنة 1890م.[13] حرص الشيخ في طريقه إلى الحج وفي عودته على الوقوف على أهم المدن ذات الصلة بالتجانية فقد زار مدينة عين ماضي بالجزائر مسقط رأس الشيخ سيدي أحمد التجاني للتبرك، ولتجديد العهد وتبادل الإجازات، ففي فاس مرقد الشيخ التجاني مثلاً تمت إجازة الشيخ من قبل كثير من اقطاب التجانية كما أجاز بدوره عدداً من الأتباع قبل العودة إلى وطنه حيث ستبدأ مرحلة جديدة في حياة الشيخ. وبعد هذه الزيارة المباركة إلى البقاع المقدسة تبوأ الشيخ مكان الصدارة في الطريقة التجانية حتى أصبح يلقب بالخليفة العام للطائفة التجانية، ولا يزال هذا اللقب مرتبط ومتوارث عند أولاده إلى يوم الناس هذا، فالتجانية في السنغال مرتبطة اسمياً باسم الحاج مالك ومكانيا بمدينة ((تواوون)) التي تعد قبلة لآلاف الزوار سنوياً من كل انحاء السنغال ومن خارجها، وخاصة في شهر ربيع الأول لأحياء مولد الرسول ﷺ.[14]

تميزت الصوفية في غرب افريقيا في كثير من المناطق بالابتعاد عن المنهج الحقيقي للتصوف أو ما يعرف بعلم السلوك، أو الإحسان عند المسلمين. ولهذا اهتمت الحركات الإصلاحية الكبرى في المنطقة خلال القرن التاسع عشر الميلادي بتطهير الدين من هذه الشوائب في الأقطار التي يغلب عليها المسلمون.[15] أما الشيخ مالك سي فإن منهجه في التصوف بالرغم من النشأة والتربية في هذا الوسط الإفريقي المعروف بإحياء الكثير من الطقوس والعادات التي لا تمت بصلة للدين ولا للصوفية، الا أنه لم تظهر عليه شطحات ولا نطحات كثير من المتصوفة، فقد كان ملتزما بالشريعة الغراء ولم يدَّعِ كرامة ولا خوارق، فطوال حياته لم يجمع بين أكثر من أربع زوجات، ولم يعلن عن كشف البواطن.[16] وقد تمكن الشيخ مالك

من عرض مبادئ الطريقة التجانية في هدوء وانسجام مما جعل الناس تلتحق بالطريقة أفواجاً وفرادى في ظل قيادة الشيخ الرشيدة واهتمامه بالمريدين. وبهذا انتشرت الطريقة التجانية بين الأهالي بشكل لم يسبق له نظير.[17] لأن الأصل الجمع بين العلم والتصوف، فالعلم والتربية لا ينفكان عن بعضهما البعض، أما الهرطقات والشطحات، ولبس المرقعات وما يشاكلها فهي مما يُنفر الكثير من المسلمين عن التصوف.

4-مو اقف الشيخ وعلاقاته بالفرنسيين:

اعتمدت الإدارة الاستعمارية الفرنسية في السنغال وغيرها من المستعمرات سياسة تقوم على محاربة الدعاة الذين يثيرون المسلمين ضد الغزاة الصليبيين ومن ذلك إصدار الحاكم العام الفرنسي بالسنغال مرسوما يقضي بعدم الوعظ في كل مكان وتحديد مناطق معينة للدعاة لأن هؤلاء الدعاة في نظر الإدارة هم الخطر الأكبر على سياستها.[18] وبهذا فقد كانت علاقة الشيخ مالك مع الفرنسيين في بداية أمره ودعوته مضطربة، فلما أسس الشيخ زاويته بقرية (جاردِه) وتوافد عليها الطلبة من جميع الانحاء سعى حساده إلى الوشاية به لدى السلطات الفرنسية بدعوى أنه يحضر ويجهز جيشاً لمحاربة المسيحيين في السنغال، فأصدرت الإدارة مذكرة لاعتقاله والتحقيق معه لكن الشيخ بفضل عيون اتباعه وأحبابه علم بالأمر، وبعد التشاور مع جملة من الخيرين والأحباب، انتقل الشيخ الى سان لويس بإرادته وقابل الحاكم العام لمستعمرة السنغال وأوضح له سوء الفهم.[19] وقد روى عثمان انجاي تفاصيل اللقاء بين الشيخ الحاج مالك والحاكم الفرنسي في أندر، وقد جرى بينهما حوار لطيف حيث سال الحاكم الشيخ عن سبب عزلته وعن الأسلحة التي يجمعها. فأجاب الشيخ أن سلاحه الوحيد السبحة وليس له غيرها، ولما سأله عن عزلته أجاب الشيخ إن طريقته لا إكراه فيها لأحد. أما السؤال المهم الذي طرحه الحاكم فهو عن موقف الشيخ من إقامة الفرنسيين في السنغال؟ فأجابه الشيخ إن تركتم لي ثلاثة (ديني وعلمي وطريقتي) فلن أتدخل في شؤونكم ولا حاجة لي بسلطتكم. وعلى هذا الأمور الثلاثة اتفق الحاكم مع الشيخ.[20]

أسس الشيخ أول مدرسة له في مدينة أندر وكان ذلك سنة 1892م، وكانت العلاقة بينه وبين الفرنسيين يعتريها الشك والتخوف، فهم يعتبرون زاويته خلية نائمة تستعد للهجوم، وظنوا أنه يقوم بأعداد الأتباع استعداداً للهجوم عليهم، وخصوصا أن هؤلاء الاتباع كانوا من مقاطعات وجنسيات وشعوب مختلفة فمنهم: التوكولور، الليبوس الساركوكوليس ، الماندينغ ومعظمهم من الولووف...[21] واما الاذكار والاوراد التي كانت تتلى في الزاوية آناء الليل وأطراف النهار فكانت عندهم بمثابة ألغاز وطلاسم يتدرب بها الاتباع ويتحمسون استعدادا للهجوم، ولهذا عملوا على مراقبته واستدعائه عدة مرات للتحقيق، كما قاموا بمضايقته ومضايقة أتباعه، ولم تنقطع مضايقاتهم له لكثرة الوشاة والحاسدين. وتم استدعاؤه عدة مرات للتحقيق حتى عندما استقر بمدينة تواوون.[22]

مع قيام الحرب العالمية الأولى(1914-1918) قامت فرنسا باستنفار أبناء مستعمرتها من أجل خوض غمار هذه الحرب طواعية أو كراهية، ومن أجل هذا حاولت استغلال نفوذ شيوخ الزوايا نظرا لكثرة الاتباع وتقديسهم لشيوخهم، إلا أن الشيخ الحاج مالك رفض طلب السلطات الفرنسية بتجنيد أتباعه

من التلامذة والاحباب، بالرغم من الصداقة التي كانت تربطه مع الإدارة الاستعمارية أنذاك، لأن هذه الحرب كما تقول العرب قديما (لا ناقة لهم فيها ولا جملا)، وحتى لا يغضبهم الشيخ أشار عليهم بتجنيد ابنه وفلذة كبده محمد سي وبالفعل فقد تم تجنيده ومات في غمرات هذه الحرب.[23] وهذه الحادثة أثارت غضب كثير من الاتباع والفقهاء من الشيخ. كيف يدفع بابنه إلى حرب لا تعنيه؟ ولا تعني بلده ولا أمته؟ .

ومن أبرز الثمار التي جناها الشيخ من علاقاته مع الفرنسيين والتي استفادت منها المنطقة برمتها هو قرار السلطات الفرنسية طبع مؤلفات الشيخ مالك سي في تونس وكان عمره أنذاك ستة وستون حولا.[24] ووفقا لما ذكره بول مارتي في كتابه دراسات حول الإسلام فإن الإدارة الفرنسية أشرفت بنفسها على طباعة 26 كتاباً للحاج مالك سي في تونس من قبل الناشر بلحاسم وإخوانه ما بين سنتي 1914 و1915م[25]. ويبدو أن طبع هذه الكتب في مثل هذا الوقت له دلالته الخفية، وخاصة في هذا الظرف للعمل على كسب هذا الشيخ إلى صف فرنسا خلال الحرب العالمية الأولى.

5-جهود الشيخ مالك سي في إحياء الدين الإسلامي ومحاربة التنصير:

بعد احتلال فرنسا للسنغال كان عدد سكان المستعمرة حوالي 50 ألف نسمة 48 ألف منهم مسلمون بينما لا يتجاوز عدد المسيحيين 2000 نسمة، ومن أجل التوطيد لهؤلاء النصارى كانت المدرسة أفضل وسيلة لتغيير المعادلة، وقد عبر فيدربي عن هذا بقوله:" أرى أن مشروع المدرسة هو الأكثر أهمية من كل المشاريع والقضايا التي علي أن أتكفل بها". وعكف على تنفيذ هذه السياسة بإنجاز مدارس علمانية بسان لويس وفي نفس الوقت أصدر سنة 1957 قرارا منظما للمدارس القرآنية يهدف إلى مراقبته وطرد بعض المدرسين المعادين للسياسة الفرنسية وارغام المعلمين على تدريس حصص في التكوين الفرنسي، ومنع بناء مدارس جديدة إلا بترخيص من الإدارة الاستعمارية.[26] وبهذه السياسة التي جمعت بين القمع والليونة تناقص عدد الكتاتيب في السنغال بشكل رهيب فمن سنة 1904 م إلى سنة1907م تناقص العدد من 204كُتّاب إلى 109، وعدد التلاميذ من 20910 إلى 19013تلميذ.[27] وفي المقابل عملت على إنجاح سياستها التنصيرية التغريبية ببناء أكثر من أربعين مدرسة في السنغال مابين1892-1898 ورصدت لها الحكومة ميزانية خاصة من أجل جعل المدارس الفرنسية أكثر جاذبية لأولاد المسلمين.[28]

لعل أهم ما ينقمه خصوم الشيخ مالك عليه هو تزلفه في علاقاته بالفرنسيين، إلا أن الشيخ أجاد استخدام هذه العلاقات لصالح دعوته، وإنجاح مشاريعه. فكما يقال رب ضارة نافعة، فالسلطات الاستعمارية وضعت الشيخ مالك سي تحت المراقبة في المدن الكبرى مثل سان لويس حيث كانت بداية الدعوة ثم في زاويته الخاصة في تواون، واستطاع الشيخ أن يكسب ود الفرنسيين وثقتهم وهذا ما جعل الطلبة والرواد يلتفون حوله والإدارة الاستعمارية توفر له الحماية والحراسة بطريقة غير مباشرة، واستطاع الشيخ بفضل جهوده تكوين جيل من الدعاة والمفكرين والمدرسين والمقدمين نبغوا في سماء الإصلاح وأسهموا في نقل تعاليمه إلى القرى والارياف والمناطق النائية.[29]ولقد أولى الشيخ مالك تكوين أتباعه اهتماما بالغا ولهذا فقد كانت زاويته التي أسسها في تواون مركز إشعاع ثقافي تعدى حدود السنغال.

وخاصة عندما سن الشيخ الاحتفال بعيد المولد النبوي(غامو-**gamo**).[30] وحسب بول مارتي فإن مدرسة الحاج مالك سي أكثر تعليما وتثقيفا وخطورة في المستعمرة، ذلك أن زاويته التي فتحها ضمت في بدايتها 150 طالبا من جميع انحاء السنغال ومن مختلف الأعراق وكانت تهتم بدراسة القرآن والنحو والعقيدة وتفسير القرآن،[31] ثم لم تلبث أن تضاعفت ووصل إشعاعها أبعد الآفاق.

وبعيدا عن مواجهة السياسة الاستعمارية بطريقة مباشرة فقد تركزت جهود الشيخ مالك الإصلاحية على محاربة السحرة والدجالين وبيع الطلاسم التي كانت تعد تجارة رابحة في السنغال، وكان الاعتقاد بها سائدا في عظيم الأمور وحقيرها وأدى امتهانها إلى فضائح اقتصادية واجتماعية لا تعد ولا تحصى، وقد خصص لمحاربة مثل هذه الظواهر كتابا وسمه ب ((كفاية الراغبين فيما يهدي إلى حضرة رب العالمين، وإقماع المُحْدِثين في الشريعة ما ليس له أصل في الدين)).[32]وقد ركز الشيخ في دعوته على ثلاث أسس رئيسة أولها التجوال والتعارف والتفاهم فقد كان كثير التجوال مما جعله يلتقي مع شخصيات مهمة، والأساس الثاني وهو البحث والجمع والتأليف وقد أشرنا آنفا إلى كثرة وتنوع مؤلفاته، أما الركيزة الثالثة فهي التربية والتعليم والبعثة وذلك من خلال تعليم الرجال الذين حملوا المشعل ونشروا مذهب الشيخ وطريقته في القرى المدن القريبة والبعيدة.[33] وبهذا نال الشيخ مالك سي مكانة وتبجيلا في مجتمعه تضاهي المكانة التي نالها الزعماء والقادة السياسيين من خلال تدريسه وكتاباته ومن خلال تلك المراكز الثقافية التي قام ببنائها والإشراف عليها، ولم تقتصر كتاباته على العلوم الشرعية فقط بل تعداها إلى الكتابات الخاصة بالفكر والاصلاح لأن اهتمامه في المقام الأول بناء أسس الإسلام.[34]

من أبرز ما يحسب للشيخ مالك سي هو إنشاؤه لنوع جديد من المدارس تعرف ب(الدارات) مختصة في تعليم الدين الإسلامي واللغة العربية، والتي عرفت إقبالا كبيرا من طرف المجتمع السنغالي وكان لها الأثر الكبير في تعليم أجيال من أبناء السنغال، مما جعل السلطات الاستعمارية تعمل بكل الوسائل من أجل القضاء على نشاط هذه المدارس بكل الوسائل، فقامت ببناء مدارس موازية لها لتعليم الفرنسية لكنها فشلت حيث لم تعرف التوافد المطلوب ولم تحقق الغايات مما جعلها تلجأ إلى أسلوب جديد ونوع آخر وهو المدارس العربية الفرنسية حيث أنشئت أول مدرسة من هذا النوع بسان لويس سنة 1908م، وهذه المدارس المزدوجة اللغة كان الأثر البالغ في تغريب المجتمع السنغالي وبداية انسلاخه عن قيمه وعاداته وتقاليده.[35]

نظرا لأهمية العلاقات والتواصل وتبادل الخبرات وتأثيراتها في كل مجالات الحياة، فقد استطاع الحاج مالك سي أن يحافظ على علاقات وطيدة مع علماء المسلمين داخل وخارج بلاد السودان وخاصة مع علماء فاس ولم تقتصر على العلاقات العلمية بل شملت أيضا علاقاته كل مناحي الثقافة والفكر وهذا ما سمح له بالحصول وكسب جل أعمال المفكرين والعلماء من بلدان ومناطق الحضارة العربية مما أتاح للشيخ الاطلاع باستمرار على تطور الأفكار في العالم الإسلامي.[36]

بعد المضايقات التي تعرض لها الشيخ مالك في مدينة أندر نظرا لوقوعها قرب مركز السلطات الفرنسية وكونها في أطراف البلد، قرر الشيخ سنة 1902م الابتعاد عن مدينة أندر واختار مدينة تواوون مقرا له ولنشاطه وزاويته، واتخذها مركزاً وسكناً مناسبا لوظيفته الدينية، وفي نفس السنة أقام الشيخ أول احتفال بالمولد النبوي.[37] ومن هنا بدأ اشعاع الحاج مالك والطريقة التجانية في منطقة السنغال في صورة جديدة، وكان اختيار الشيخ لهذه المدينة لأنها تتوسط مدينتين كبيرتين وهما أندر ودكار، وبفضل جهود الشيخ فقد تخرج من معهد تواوون أكابر الشيوخ الذين عملوا على نشر الإسلام، وقادوا حركات إصلاحية، وعملوا على توحيد المسلمين، وتبصيرهم بأمور دينهم.[38]وأمام اشتداد التنافس حول توجيه التعليم وأمام الضغوطات الفرنسية والمغريات من جهة أخرى التي فشلت في توثيق التعليم واحتوائه، فقد نجح تلامذة الشيخ في إنشاء الكتاتيب داخل البيوت في القرى النائية، وهذا النوع من المقاومة الباردة والسلمية هي التي أنتجت جيلا من حفظة القرآن الكريم وعددا من المثقفين الإسلاميين إلا أنهم لا يقارنون بالجيل الذي تعلم خلال سنوات الحرية التامة.[39]

ولأن الأفكار لا تموت بموت أصحابها فقد ترك الشيخ الحاج مالك سي أثره في الرجال، كما ترك أثرا طيبا بين دفات الكتب، وبهذا بلغ ذكر الشيخ الافاق ولم يقتصر على منطقته أو بلده وهذا بفضل تلامذته الذين انتشروا في الاصقاع وفتحوا فروعا لمدرسة وزاوية الشيخ وساروا على نهجه، ومن تلامذة الشيخ في السنغال وضواحيها نجد الشيخ هادي توري في فاس من (امباكول)، الشيخ الحاج روحان انغوم في منطقة (بال) (**Paal**) والشيخ الحاج داوود جه في الوولوف (**Wolof**) الشيخ تفسير مودو في قرية بوط (**Put**) أما تلامذته في خارج السنغال فنجد على سبيل المثال لا الحصر الشيخ أنداري أمباي في الغابون، الشيخ أمادو بويا في كوت دي فوار، والشيخ ماجاخو جونغ في دولة كونغو...[40]

وقد كان تركيز الشيخ على العلوم الشرعية في إصلاحاته لكونها ضرورية ومن أبرز العلوم التي ركز عليها علوم القرآن التفسير النحو والأدب.... وقد تميز الشيخ مالك بالبراعة في كتاباته باللغة العربية الفصحى على عكس كثير من علماء المنطقة الذين نجد لهم بعض الأخطاء النحوية والتركيبية مما يجعل القارئ لمؤلفاتهم يلاحظ عجمتهم.[41]

الخاتمة:

بعد هذه الدراسة المقتضبة حول الشيخ مالك سي التواوني الذي يعد أحد ركائز المقاومة الثقافية والفكرية في السنغال خاصة وغرب افريقيا عامة، خرجنا في النهاية بجملة من النتائج من أهمها:

- استهدف الاستعمار الأوروبي في غرب افريقيا ضرب وطمس الهوية العربية الإسلامية لسكان المنطقة من خلال القضاء على اللغة العربية والدين الإسلامي بطريقة غير مباشرة.
- تلقى الشيخ مالك سي تعليما رصينا حيث قضى شبابه متنقلا بين شيوخ منطقته حرصا منه على تلقي مختلف فنون العلم الشرعية والدنيوية.

-تربى الشيخ تربية صوفية حيث رضع مبادئ الطريقة التجانية منذ صباه، كما عمل على توثيق هذه الصلة الروحية بربط علاقات مع أقطاب وشيوخ الطريقة في الجزائر والمغرب.

- تميز الشيخ مالك سي بالمرونة في التعامل وهذا ما جعله يكسب ود الإدارة الاستعمارية بل ويستفيد من علاقاته معها من خلال حمايتهم له وطبعهم لمعظم مؤلفاته.

-ترك الشيخ إرثا مهما من المؤلفات في مختلف الفنون كما عمل على تكوين مجموعة من الرجال حملوا شعلة الإصلاح ونشروا المنهج السلمي المحافظ في مختلف الاصقاع.

- بهذا الأسلوب المرن في التعامل مع المستعمر أصبح الشيخ مالك سي مدرسة وقدوة للكثير من المصلحين الذين جاءوا من بعده.

المصادروالمراجع:

1 Michael Crowder, West Africa under Colonial Rule (London: Hutchinson, 1968), pp.62-63.

2 أحمد الهادي التجاني: تحريرالاقوال في تاريخ السنغال من القرن السادس عشرحتى القرن العشرين، دارالمقطم، مصر، 2009، ص 420.

3 اختلف المؤرخون في تاريخ ولادة الشيخ على ثلاثة أقوال: 1853م-1855م-1857م. ينظرعثمان أنجاي: السيرة الذاتية للشيخ الحاج مالك سي، دارالمقطم للنشروالتوزيع، القاهرة، 2011، ص 18.

4 Paul Marty : étude sur l'islam au Sénégal, tome 01 les personnes, Ernest Leroux, Paris, 1917, p 175.

5 عثمان انجاي: المرجع السابق، ص 11-12.

6 محمد جوف بن تفسيرباب البرني: اعلام الهدى بغرب افريقيا، المؤلف، السنغال، 1999، ص 158.

7 عثمان أنجاي: المرجع السابق، ص 19-20.

8 Henri séne: le livre et l'écrit de langue arabe dans la société sénégalaise, des origines au début de 20éme siècle, thèse de doctorat en sciences de l'information et de la communication, université de Bordeaux3, 1982, p 147.

9 أحمد الهادي التجاني: المرجع السابق، ص 432.

10 محمد بشرى عيسى جيي: جهود علماء السنغال في خدمة المذهب الاشعري من القرن 17 إلى القرن 20 ميلادي، دارابي رقراق للطباعة والنشر، المملكة المغربية، 2016، ص 96.

11 Paul Marty: Op. Cit, p 186.

12 أحمد الهادي التجاني: المرجع السابق، ص 422-423.

13 عثمان أنجاي: المرجع السابق، ص 30-31.

14 محمد بشرى عيسى: المرجع السابق، ص98.

15 عبد القادرمحمد سيلا: المرجع السابق، ص 78.

16 محمد بشرى عيسى: نفسه، ص 99.

17 محمد جوف: المرجع السابق، ص 159.

18 الناصرعبد الله أبوكروق: مقومات الثقافة السنغالية دراسة تطبيقية الإسلام والاستعمار، دراسات افريقية، ع 20، جامعة افريقيا العالمية، الخرطوم، جوان 2001، ص 168.

19 محمد جوف: المرجع السابق، ص 159.

20 عثمان أنجاي: المرجع السابق، ص 41.

21Paul Marty: Op. Cit, p 184.

22 عثمان أنجاي: المرجع السابق، ص 39

23 أحمد الهادي التجاني: المرجع السابق، ص429.

24 عثمان أنجاي: المرجع السابق، ص16.

25 Henri Séne: Op. cit, p 172.

26 عبد الله عيسى: مجمل تاريخ السنغال من القرن 11 إلى نهاية القرن 19، مركز الكتاب للبحوث والدراسات، السنغال، 2020، ص 399-400.

27محمد أحمد لوح: التعليم العام ومناهجه السنغال نموذجا، نيامي، 2009، د.د.ن، ص 15.

28 عبد الله عيسى: المرجع السابق، ص 402.

29 محمد جوف: المرجع السابق، ص 160.

30 عبد القادر محمد سيلا: المسلمون في السنغال معالم الحاضر و آفاق المستقبل، رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية، قطر، 1406ه/1986م، ص137.

31 Henri Séne: Op. cit, p 217.

32 عبد القادر محمد سيلا: المرجع السابق، ص 128.

33 عثمان أنجاي: المرجع السابق، ص 51.

34 Henri Séne: Op. cit,p 216.

35 الناصر عبد الله: المرجع السابق، ص 169.

36 Henri Séne: Op.Cit, p 209.

37 عثمان أنجاي: المرجع السابق، ص 39.

38 محمد الهادي التجاني: المرجع السابق، ص 429.

39 محمد أحمد لوح: المرجع السابق، ص 16.

40 عثمان أنجاي: المرجع السابق، ص 55-56.

41 شيخ لعرج: "موقف الطريقة التجانية من قضايا الاستعمار الكبرى في شمال وغرب إفريقيا خلال القرن 19 وبداية القرن 20"، رسالة دكتوراه، فغروردحو، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية، قسم التاريخ وعلم الاثار،2016-2017، ص 189.